

## أخلاقيات التعامل مع الآخر تأملات في فلسفة الغيرية عند إيمانويل ليفيناس

■ محمد بكاي

### تقديم:

يُحظى اليوم إيمانويل ليفيناس (Emmanuel Levinas)<sup>1</sup> بإقبال واسع في الوسط الأكاديمي لشرح مقولاته الأنطولوجية، ومناقشة تصوّراته عن فلسفة الأخلاق (الإيتيقا)، ويُعدّ هذا الفيلسوف وجهاً بارزاً من وجوه الفكر الفرنسي المعاصر؛ حيث سائر حقبة دريدا، وليفي شتراوس، ولاكان، ودولوز، وباتاي، وفوكو، وبارث وغيرهم؛ لكنه ظلّ مغموراً مقابل تلك الشهرة التي نالها ذلك الجمع من الفلاسفة، وطبعاً لا يمكننا التغاضي عن الجحود أو

1 - وُلد إيمانويل ليفيناس في كوفنو بليتوانيا عام 1905. وتلقى ليفيناس تربية يهودية تقليدية. عانى ليفيناس وأسرته شأنه شأن بقية اليهود خلال الفترة النازية من الاضطهاد والقتل والرعب مما أدى إلى هجرته مع أسرته إلى أوكرانيا. هاجر بعدها إلى فرنسا واستقر في ستراسبورغ عام 1923؛ حيث واصل دراسة الفلسفة خاصة فلسفة هوسرل التي خصّها بأطروحة جامعية. وله الفضل الكبير في نقل أعمال هيدغر وهوسرل إلى اللغة الفرنسية. تميّزت كتاباته باهتمام ملحوظ بمبحث الإيتيقا والغيرية الذي خطا به خطوات مهمة من خلال مؤلفات محورية. توفي في فرنسا سنة 1995.



التجاهل (بقصدٍ أو غير قصد) الذي مُنِيَ به هذا الفيلسوف اليهودي اللبني المنبت، الفرنسي الجنسية. فقد بقي تراثه - الفائض ثراءً - غير شائع بين حشد التيارات المعاصرة المترصّدة للمشهد الفلسفي مثل تفكيكية دريدا أو جينالوجيا فوكو أو هرمنيوطيقا غادامير وغيرهم. «لكن على نقيض الجحود النسبي الذي عاناه تراث ليقيناس، ينعم اليوم باعتراف عالمي، يمتدّ إشعاعه حقاً أبعد من الدوائر الفلسفية، ليُلامَسَ ميادين مختلفة، مثل النظرية السياسية والنقد الأدبي والتأويل والأخلاق»<sup>1</sup>.

وإننا نجدُ أنّ ليقيناس اهتمَّ اهتماماً جلياً للغيرية، وأنزلها مكانة متميّزة، حيث تتصدّر إتيقا الغيرية مقولاته الفلسفية، وأصبح الآخر قضية محورية في واجهة أعماله وكتاباتة الفكرية، وهو ما جعل ليقيناس فيلسوفاً متميزاً يُلقَّب في الوسط الفكري بفيلسوف الإتيقا أو فيلسوف الغيرية تمييزاً له عن فلسفات التفكيك والتأويل والجينالوجيا.

وقد خصّص ليقيناس حيّزاً واسعاً من فلسفته للكتابة بشكل تأملي ومتميّز عن أخلاقيات التعامل مع الآخر، وحرص في ذلك على غرس فكرة التسامح ونبذ فلسفة العنف والقتل. مستهجنًا حرُوب البشر التي تأتي على الأخضر واليابس. مُطالباً من خلال ما كتبه وألقاه من محاضرات وما عقده من مؤتمرات، بإعادة الاعتبار في تعاملنا مع الآخر، وفي مسؤوليتنا تجاهه، وفي الحق بالاعتراف به، وفي احترامه كآخر مختلف عني، والإصغاء إليه والحوار معه؛ فمن غير الأخلاق إقصاء الغير أو تهميشه أو إدماجه في سياق الذاتية.

هذه المقالة هي بسط وشرح لأبرز الخيوط العريضة في فلسفة ليقيناس الإتيقية، وهي محاولة للتقرب والدنو من الغير اللامتناهي بفتح صفحة أخلاقية جديدة معه، هي «وصلٌ بعد فصلٍ» بين الذات والغير عبر التذات والتفاهم والتّحاور والتّخاطب والأعنف والمسؤولية المتبادلة.

1 - «ليقيناس من الموجود إلى الغير»، تحت إشراف: جويل هنسل، ترجمة: علي بو ملحم، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 2008، ص 11.

هذا ما سيفرز أساليب سلبيّة وسلوكات سليمة وأخلاق سامية، فقد يخطئ الواحد ويصيب الآخر، لكن بالتفاهم المتبادل ستزول العوائق وينصهر التهميش وتذوب مشاعر اللااعتراف التي تحول دون اقترابهما. فبشكل عقلائي وسلسٍ وأخلاقي سيصل الأنا وهو إلى سُبُل لتصحيح الأخطاء التي قد يقع فيها كل واحد منهما، ويتجنبان بذلك العراك والسباب أو القتل والسفك.

## 1 - مظاهر الفلسفة الأخلاقية عند إيمانويل ليغيناس

اهتمَّ ليغيناس اهتماماً جلياً للغيرية، وأنزلها مكانة متميزة، حيث تصدر إتيقا الغيرية، مقولاته الفلسفية، وأصبح الآخر قضية محورية في واجهة أعماله وكتاباته الفكرية.

أسّس ليغيناس لفلسفة أخلاقية جديدة، أعطى فيها اهتماماً للمهمّشين والمنبوذين، واحتفى بالـ «الغير» الذي أقصته الميتافيزيقا الغربية، واحتوته مركزياتها في قلاع الذاتيّة؛ فالنّزوع الشديد نحو الوحدة والأحادية قد رافق التقاليد الفلسفية والميتافيزيقية الغربية منذ القدم عبر اهتمامها بالعقل والوعي أو الذات و«الأنا». وهذا ما يُشكّل طرحاً أخلاقياً خطيراً نظراً لإقصاء الكثرة و«الهو». هنا تبرز فلسفة

ليغيناس الأخلاقية بجرأة وشجاعة، كردّ أخلاقي فلسفي حاسم، منزلاً «الغير» منزلة مهمة في الفكر الغربي المعاصر. معنى هذا، أنّ إتيقا ليغيناس سبيل مغاير لا يُمجد الأحادية بقدر ما يقف ضدها (contre un)؛ إنه تمادٍ على المركزيات بإثارته لعلاقتنا مع الآخر، باستحقاقه للدرس والفحص، بأصالته إلى جانب الذات.

لا يُصنّف ليغيناس كفيلسوف ضمن دائرة الممجدين للتقليد الفلسفي الغربي (أو المركزية الغربية). مُخالفاً بمذهبه الأخلاقي التيارات الفلسفية السائدة في عصره؛ فهو «يذهب غالباً عكس تيار الميول التي سيطرت على النقاش الفكري إبان سنوات ما بعد الحرب. وفي عصر كانت فلسفة هايدغر تُحدّث عدداً من المنافسات في فرنسا، كُتّف ليغيناس نقده لفكر يعطي



الأولوية لمشكلة الوجود على مشكلة الإنسان»<sup>1</sup>. ما يُراهن عليه ليقيناس، هو تجاوز الفلسفات الذاتية وندرجسيتها، والانتقال إلى الاعتناء بأخلاقيات التعامل بين الأفراد والاهتمام بالاختلاف، هذا الاختراق الفلسفي عند ليقيناس «هو تخطُّ لمنطق التنافي والتخاصم، وتفكيك قلاع الهويات المتكتمة على ذاتها، ومدّ جسور التواصل والتّصافي بين الذوات والأُمم من أجل تحقيق مجموعة من التفاهمات وإنجاز جملة من التشاركات؛ قصد بناء الهوية الإنسية الكونية المؤهلة لتحمل مسؤولية المحافظة على الحياة الأرضية، وتحقيق وصية الاستخلاف والائتمان والتعمير»<sup>2</sup>.

ينتقد ليقيناس العقلانيات الغربية نقداً لا هوادة فيه، شأنه في ذلك شأن دريدا وأشياعه؛ فهي لم تنتج لنا في مناداتها بالحرية إلا الحروب وويلاتها؛ فإذا «كانت السيرورة التاريخية تشهد لدى هيغل على الروح المطلق، فإن روزنتسفايغ ينطلق من الواقع التاريخي لقارة غرقت في حرب طاحنة؛ لكي يحاكم هذه العقلانية التي يتحدث عنها هيغل والتي لم تتورع عن الدفاع عن الحرب وشرعنتها؛ إذ يرى هيغل أن أشدّ ما يهدد روح الشعب هو الأنظمة المنعزلة أو بلغة أخرى: الفردية. وحتى يتم المحافظة على روح الشعب يتوجب على الحكومة أن تهزّ دواخلها من حين لآخر عبر الحرب»<sup>3</sup>. فالأخلاق التي يدعو لها ليقيناس مناهضة للخطاب المؤسّساتي المناشد للحرية والوعي المكوّن، ورافضة لكل ميتافيزيقيا غير خلقية.

كما تُنكر إتيقا ليقيناس تملك الذات لذاتها، وبذلك يبرز وجودها في تَوْقِها للغير والرغبة في التقائه والتّقرب منه والاجتماع به، إنه اتجاه صوب الخارجية. هنا تبرز فكرة اللامتاهي المتعلقة بتجربة الغيرية وبالعلاقة مع

1 - ليقيناس من الموجود إلى الغير، تحت إشراف: جويل هنسل، ص 10.

2 - زهير خويلدي، «فيلسوف الغيرية: الأنا والآخر وجهاً لوجه»، جريدة العرب الأسبوعية، لندن، ع 2007/12/15، ص 10.

3 - رشيد بوطيب، «نقد الحرية أو التاريخ المنسي للتفكيكية»، في كتاب «جاك دريدا: ما الآن؟ ماذا عن غد؟ الحدث، التفكيك، الخطاب»، إشراف: محمد شوقي الزين، منشورات الاختلاف، الجزائر، ودار الفارابي، بيروت، لبنان، ط1، 2011، ص 305 و 306.

الآخر بوصفها علاقة اجتماعية تتمثل في الاصطدام مع وجود خارجي بإطلاق، لا تنتهي هذا الوجود لا يمكن أن يحتوي الآخر، وتكون هذه الخارجية التي تظهر في المقاومة المطلقة التي يبديها الوجه ضد كل موضوعة. «إن الانفصال الجذري بين الأنا والآخر غير ممكن؛ لأنه من المستحيل على الأنا أن يتموضع خارج تضافه مع الآخر، كما أن الغيرية غير ممكنة إلا إذا كان «الآخر» آخر بحق. إن الأنا ليس موجوداً دائماً مع نفسه، بل يحاول أن يجدد هويته عند كل نقطة يلتقي فيها بالأغيار. إن الآخر بإطلاق هو آخر الذات، ولا يمثل عدداً بالنسبة لي، والجماعانية التي تجعلني

إنَّ الاختراق الفلسفي عند ليفيناس «هو تخطُّ لمنطق التنافي والتخاصم، وتفكيك قلاع الهويات المتكتمة على ذاتها، ومدِّ جسور التواصل والتصافي بين الذوات والأمم من أجل تحقيق مجموعة من التفاهات وإنجاز جملة من التشاركات».

أقول أنت ونحن ليست مجرد جمع للأنا؛ لأن الأنا والأنت ليس هنا أفراد لمفهوم مشترك. إن غياب عنصر هو الذي يجعل الآخر آخر والغريب هو الحر من كل تقييد وسيطرة وهو الذي يحدث اضطراباً في الذات عند كل مقابلة»<sup>1</sup>.

لذلك يعدّ ليفيناس الأخلاق هي فلسفة أولى<sup>2</sup>؛ هي أخلاق للأخلاق مثلما وصفها دريدا. إنَّ الإتيقا عند ليفيناس ليست من شُعَبِ الفلسفة، بل هي الفلسفة الأولى: «كما في كل كلام، تقوم بكونها موجّهة أو مقدّمة إلى الغير. ليست الفلسفة

ممكنة إلا بنمط محاورة. ولكن كلمتها الأولى والأخيرة تكون نظراً لجميع ما يقوله الفلاسفة للأغيار (بمن فيهم أنفسهم بصفته مستمعين لأفكارهم) في فكر مترجم بالتأكيد، ولكنه واع من رجوعه إلى الغير. إذا فكرت فيك، فإنني أشتاق على الأقل إلى أن أقدم لك ما بدا لي حقاً بنظرك»<sup>3</sup>.

لا يعني ليفيناس بمقولة «الإتيقا هي الفلسفة الأولى والأخيرة» أن يُحدِثَ قطيعة مع الإطار الوجودي للفلسفة، فلم يَرْمُ إسقاط أو هدم أركان الصّرح

1 - زهير خويلدي، «فيلسوف الغيرية: الأنا والآخر وجهاً لوجه»، ص 11.

2 - Emmanuel Lévinas, Éthique et Infini, Le Livre de Poche, Biblio-Essais, 1992, p. 71.

3 - «ليفيناس من الموجود إلى الغير»، تحت إشراف: جويل هنسل، ص 113.



الأنطولوجي، فالإطار الأنطولوجي للفلسفة لم ينقطع. وقد استطاع ليفيناس تقديم فكرة كمراجعة أساسية لعلم الوجود التقليدي، وحتى علم الوجود الهايدغري. وأغنانا بدل ذلك بعلم الظواهر الغيرية على اعتبار المشاكل المركزية لعلم وجود جديد<sup>1</sup>. أي أنه ينتقص تلك المباحث الأنطولوجية التي سبقتها؛ في كونها غير قادرة على إدراك الغيرية وأبعادها الأخلاقية، وأنها تتعامل معها بعنف، فتزدرئها وتصنّفها في مصاف المهمش والغريب، وتحممها إقحاماً داخل منطق التكوين الذاتي الداخلي.

لذلك «ناهض ليفيناس الإرث الفلسفي الغربي في بُعده الميتافيزيقي، الذي دمج كل شيء ضمن دائرة المعرفة الموضوعية السببية، وهمّش بالمقابل الذات، ووقع في الخلط بين الطبيعة والفكر والتاريخ والبنية، فاهتم ليفيناس بما أبقته هذه الميتافيزيقا خارجها من مشاكل وقضايا، وتناول المواضيع التي أسقطتها من حسابها وهمّشتها؛ مثل الغيرية والجسد والوجه»<sup>2</sup>.

يُقدّم علم الوجود التقليدي مفاهيم عن الذوات في هيئتها الأحادية المقاومة والمُتصدية للآخر، تلك المقولات الأنطولوجية هي تزكية لخطاب التسلّط والتّمركز والقوّة، وكل ذلك سيؤدي لا محالة إلى الحرب والعنف. وتلك المفاهيم المقدمة للكائن الموجود ستجعل منه مستقلاً بذاته وراضياً كل الرضى عن ذاته نفسها ما سيعزز جهله بالآخر واحتقاره ونبذه. فلن يحدث اعتراف بالغير ما دام الهمّ الوحيد للإنسان أن يستمر في الوجود، فإن ذلك يحمله حتماً على مقاومة الإنسان الآخر الذي يظهر له وكأنه غريب عنه كل الغرابة ووجب تجاهله.

فتجاوزَ ليفيناس التقاليد الفينومينولوجية في مباحث الوعي والأنأ، أو العماء الأخلاقي عند هايدغر؛ حيث «الذات لا خصال لها أو لا ذاتية لها داخل كلية الكينونة. وهو بذلك يناقض كل ميتافيزيقا التاريخ الهيغلية، التي

1 - المرجع السابق، ص 98.

2 - زهير خويلدي، «فيلسوف الغيرية: الأنأ والآخر وجهاً لوجه»، ص 10.

تمثل بالنسبة إليه جوهر الكلية بامتياز، كلية تضحّي بالفرد لمصلحة النظام، ولا تؤسّس للأخلاق إلا ضد الفرد»<sup>1</sup>.

وإذا كان هايدغر قد أسّس لعلاقة محايدة بين المخلوقات بإعطائه أولويّة للوجود على الموجود، فإنّ ليفيناس يهتم بالعلاقة الأخلاقية أكثر من نظيراتها. منتقداً الطرح الأنطولوجي الهايدغري ومُنحرفاً عن مقولاته الوجودية بمقال نشره عام 1934 بعنوان: «*l'Évasion*» خُص فيه إلى أنّ «الذات منسحقة من طرف الوجود ويقائها في خدمة النسق، ولاكتشافه فظاعة الممارسات اللاإنسانية التي يحملها التاريخ إلى الناس، وسبب

هذه الفظاعة هو ما يحمله الإنسان من كره وحقد على الإنسان الآخر، وتفشّي النزعات العنصرية التي تعتمد على مبادئ الإقصاء والتّمرّكز على الذات واستتصال المخالفين وتصفيتهن جسدياً ومعنوياً»<sup>2</sup>.

بهذا خاض ليفيناس في فلسفة الأخلاق برؤى جديدة تدور محاورها حول التسامح والخير والمحبة والاعتراف والاحتفاء بالغير الغريب عنا. فصاغ في كتابته المعقدة والمميّزة

هدفاً عالياً جداً: «الموجود هو الغير، والفلسفة هي طريق الغير إلى الله»، إنّ «الغير قبل الذات، قبل الأنا، قبل التجربة، وقبل العالم، هو المشروع الأصلي، وكما يُقال هو المسلّمة المولدة في فلسفة ليفيناس»<sup>3</sup>. وبذلك يكون قد أعاد الاعتبار والأهمية المغيبة لكثير من المواضيع ذات الصبغة الأخلاقية والبعد الإنساني مثل: الصداقة والمحبة والعطاء والتكفير عن الأخطاء والغفران وغيرها. بعبارةٍ أخرى، لقد زوّد ليفيناس علم الوجود بما

**إنّ الغير قبل الذات،  
قبل الأنا، قبل التجربة،  
وقبل العالم، هو  
المشروع الأصلي، وكما  
يُقال هو المسلّمة  
المولدة في فلسفة  
ليفيناس.**

1 - رشيد بو طيب، نقد الحرية أو التاريخ المنسي للتفكيكية، ص 305.

2 - زهير خويلدي، «فيلسوف الغيرية: الأنا والآخر وجهاً لوجه»، ص 10.

3 - «ليفيناس من الموجود إلى الغير»، تحت إشراف: جويل هنسل، ص 136.



ينقصه من لمسات أخلاقية ومسحات إنسانية في مناداته بإنسانية الإنسان الآخر «*l'Humanisme de l'autre Homme*». إن التّمعن في الأخلاق وإثارة قضايا إنسانية هو الذي صوّب مسالك ليفيناس من علم الوجود إلى فلسفة الأخلاق، من الذات والوجود (*L'Être*) إلى الغير (*L'Autre*)، من الأناثة إلى المجتمعية.

## 2- فلسفة ليفيناس والمنعطف الأخلاقي: من الوجود إلى الوجود

فلسفة ليفيناس شبيهة بالفلسفة اليهودية المناهضة للكليانية والأحادية، مُعيراً الاهتمام للعلاقة بالآخر واستعادته فلسفياً، حيث أسّس لأخلاق جديدة خارجة عن سلطة النظام ومركزية الكلية. ولذلك هاجم ليفيناس التقليد الوجودي خاصة مع هيغل وهايدغر، «لا من أجل أن يبيّن بإعجاب أشكالاً كثيرة من كائنية الموجود، وإنما ليمكك ادّعاء حصر عالم الحس بعلم وجود كلي. بسبب قصده أن تجمع كل أشكال الموجود في مماثلات الكلّ، نفي منها غيرية الغير الشاذّة، الأنا، الله، الموت، التاريخ، الحرية، الأخلاق، وكل ما يمكن أن يدلّ على ما هو وراء الكلياني»<sup>1</sup>.

ليفيناس من خلال فلسفة الغيرية، حيث يلتقي الإنسان بنظيره، سيقضي من دون شكّ على أنانية الإنسان والتفكير في ذاته من دون الاعتراف بأحقية الآخر. في عملية الاعتراف هذه سيحدّد بدء الوجود البشري للإنسان. ما من ربية في أن هذا الكشف يكون متبوعاً بمغامرة ومخاطر كبيرة في التعرّف على الآخر ومواجهته، ستكون بلا شكّ مجازفة محفوفة بالخطر لكن يجب القيام بها<sup>2</sup>.

وإتاحة الفرصة للآخر للقاء والتعارف والتحاور هي علة لخروج الذات من عزلتها وتوحيدها. إن الغير سيتقاسم مع الذات هذا الفضاء الإنساني الرّحب؛ حيث الخير والوثام والأخلاق الطيبة، وسينزل الذات من وعيها وعلياتها، من الأبراج العاجية التي يتمركز فيها الوجود الباطنيّ.

1 - ليفيناس من الموجود إلى الغير، ص 100.

2 - Emmanuel Lévinas, Autrement qu'être ou au-delà de l'essence, Paris, Le Livre de Poche, Biblio-Essais, p. 190.



يبتعد ليفيناس إلى أكثر من هذا؛ فالحضور أمام الآخر هو التَّعَرُّض للمخاطرة والمغامرة، هو الانتقال من سمات الاكتمال والاطمئنان إلى مشاعر العطب والريبة: «فالواحد يتعرَّض للآخر كما يتعرَّض جلد الإنسان للذي يريد جرحه، أو كما يتعرَّض الخدُّ لمن يريد لطمه»<sup>1</sup>.

تراهن مقولات الميتافيزيقا الشمولية على الأخلاق الإنسانية مقابل كسب الحريات التي لا تتخذ وجودها إلا في ظل نظام كليّ وعام (الأُسرة، المجتمع، الدولة..). «وإذا لم يُضَحَّ الفرد بفرديته لمصلحة نظام عامّ، فلن يكون بمقدرته أن يصبح جوهرًا أخلاقيًا، والحرب هي من ثم أحد الطرق المؤدية إلى الأخلاق وإلى الالتحام بالكوني»<sup>2</sup>.

**أتى الانشقاق الليفيناسي عن الإطار الأنطولوجي بعد تردُّد؛ حيث وظَّف ليفيناس في الكلي واللانهايي الأساليب الأنطولوجية من قبيل (الموجود، الموجود الحق، التجربة، الذات...).**

أما الأنطولوجيا التي يبتغيها ليفيناس فترتكز على أخلاقيات علاقة الذات بالغير والطيبة التي تكتنف علاقتهما: أن تكون، هو أن تكون للآخر، أي أن تكون طيبًا. يقول ليفيناس: الطيبة هي التعالي بذاته، في مغامرة مطلقة، وبتهور أصلي<sup>3</sup>. للآخر حقوق وامتيازات هي مسؤولية أخلاقية على رقابنا تحتم علينا محبة الغير والتعامل بطيبة وأخلاقية وإنسانية معه، وهو تحصيل علاقة مع اللامتاهي، في علاقة لا تكثرث الذات بذاتها قبل اهتمامها بالآخر، إنَّ «الطيبة تقوم باعتبار الآخر أهمّ من الذات»<sup>4</sup>.

وقد أتى هذا الانشقاق الليفيناسي عن الإطار الأنطولوجي بعد تردُّد؛ حيث وظَّف ليفيناس في الكلي واللانهايي الأساليب الأنطولوجية من قبيل (الموجود، الموجود الحق، التجربة، الذات...)، لكن سرعان ما عبّر عن

Ibid, p. 83.

2 - رشيد بوطيب، «نقد الحرية أو التاريخ المنسي للتفكيكية»، ص 306.

3 - Emmanuel Lévinas, Totalité et infini, Essai sur l'extériorité, Paris, Le Livre de Poche, Biblio-Essais, 1992, p. 341.

Ibid, p. 277.

إسقاط الموجود بوضوح كحل للمشكلة المبدئية، في الخلاصة الثانية من الكلي واللامتناهي (ص 278)، وفي خلاف الموجود (ص 104)<sup>1</sup>.

### 3 - فلسفة اللاعنّف في مواجهة العنف:

إن مشروع ليفيناس الأخلاقي شاسع المباحث وكثيف الدلالات، يلامس قضايا إتيقية مثيرة تستحق العناية، تتمثل في إدراكه للمواضيع ذات الصلة بالواقع الإنساني في لحظاته الحرجة ووقائعه المتأزّمة، وهي قضايا مُتعلّقة بالسّلم والعدل مقابل الحرب والظلم، هي فلسفة اللاعنّف التي نافح عنها ليفيناس بحرارة شديدة. إن الوثام والسلام أو العدل والعدالة هي كل الحكمة والأخلاق، وهي أعلى بكثير من مباحث الفلسفة. بعبارة أخرى، تُشدّد الإتيقا - التي ارتأها ليفيناس - على اللاعنّف الذي يجب أن يميّز علاقة وسلوك الذات بالآخر. أي التّعزيز على أهمية الأخلاق وحكمة المحبة والخير الإنساني<sup>2</sup>. فتحرّر الأنا من سياجها السّلبى لتلج إلى الغير بغية التّعارف والاعتراف والاحترام المتبادل.

إنّ تألّم المرء ومعاناته عند رحيل الأحبة والخلّان والمقربين هو مخافة الذات من فناء الآخر؛ ف«دعوة الوجود في سبيل الآخر أقوى من خطر الموت»<sup>3</sup>. بل أكثر من ذلك، فالذّات - وخوفاً من موت الآخر - تخاف من موتها هي ذاتها. فالإنسان سيختار الموت بدل القتل مثلما يقول ليفيناس: «يضع نفسه في تساؤل وأن يخاف من القتل أكثر مما يخاف من الموت»<sup>4</sup>. في هذه المفاضلة، يحقق الإنسان إنسانيته عندما يقرّر العيش والحياة في سبيل الآخر.

إنّ الآخر اللامتناهي في مواجهة بطش القتل والعنف، إذا كان الموت ممكناً فإنّ القتل يستعصي على الإمكان. هو مستحيل أخلاقياً؛ إذا كان الضّرب

1 - يُنظر: ليفيناس من الموجود إلى الغير، تحت إشراف: جويل هنسل، ص 102 و 103.

2 - Emmanuel Lévinas - «Totalité et infini (Essai sur l'extériorité)», Ed: Livre de Poche, 1971, p.274.

3 - Emmanuel Lévinas, Entre nous essais sur le Penser-à-l'autre, Paris, Grasset, 1991, p.10.

4 - Emmanuel Lévinas, Totalité et infini, Op.Cit., p.275.

والتَّهشيم والتشويه ممكناً؛ فإن القتل أو الإخضاع والإذلال غير ممكن إتيقياً؛ فهو «ليس أبداً نصراً بل إرادة يائسة تختزل الآخر الذي يتحدّى رغبتنا في شهوة القتل، هذا الآخر هو الوجود الوحيد الذي نشتهي قتله عندما تتعارض القوة التي تضربه على وجهه مع مقاومته وامتناعه عن الموت الذي يمثل النظرة نفسها نحو الوجه. هنا يتعالى الآخر على وجود القوة الموجهة ضده نحو لا متناهي الوجه، وهذا اللامتناهي هو الذي يفْتت القوة الغاشمة المسلّطة عليه بمقاومته اللامتناهيّة للقتل»<sup>1</sup>.

**سيختار الانسان الموت بدل القتل مثلما يقول ليفيناس: «يضع نفسه في تساؤل وأن يخاف من القتل أكثر مما يخاف من الموت»، في هذه المفاضلة، يحقق الإنسان إنسانيته عندما يقرّر العيش والحياة في سبيل الآخر.**

العنف قرين الحرب، وهذه الأخيرة ممكنة دائماً كما يقول ليفيناس، والسّلام هو غياب الحرب. الحروب التي تجلب في طياتها الويلات والموت والهلع والإبادة والقتل، تتشظى فيها العلاقات البشرية، وتتقطع أواصر اللقاء فيكثر الخلاف والفرقة ويسود الانشطار، فيضحى الأنا والآخر بعيدين عن التعارف والتألف، لكن من خلال العلاقة التي تتأسس بين الذات والغير سيحلّ السّلام وتتجلى أخلاق الوئام. فإذا كان الوجود كلية تؤسّس الوحدة على الخارجية والفصل الأنطولوجي؛ فإن الإتيقا تتعدّى كل ذلك بامتياز.

من البديهي أن السّلام والحرب متعارضان أو متضادان؛ لكن لا يعني ذلك أن الحرب واقعة خارجية عن الوجود، بل هي داخله. فصحيح أنها تظلّ تعليقاً للأخلاق وخروجاً عنها، لكن في الأمر لبس حول طبيعة الخارجية وبعدها الميتافيزيقي؛ حيث ظلّ الفلاسفة ينظرون إليها من منظور كلي. «ليس السّلام نهاية الحروب، ولا تألف الفرقاء بعد تباعد وانفصال، لكن هو وحدة التعددية»<sup>2</sup>. أي إعادة الملاءمة بين الوجود وذاته. ليس هناك انتصار ولا انهزام، لكن هناك علاقة مثمرة - في زمن لا متناهٍ - تقترب فيها من الحقائق.

1 - زهير خويلدي، «فيلسوف الغيرية: الأنا والآخر وجهاً لوجه»، ص 11.

2 - Emmanuel Lévinas - «Totalité et infini (Essai sur l'Extériorité)», Op.Cit, p. 342.



هذه المركزية المثقلة بالسلطة ترفض فيها الأنا حق الآخر في أن تكون له حقائق، فـ «أعلنها حرباً على الآخر؛ لأنني أمتلك الحقيقة، أمتلك المفاهيم، ولأنني أرفض حقيقة الآخر. إن الحرب سطوة المفهوم بامتياز. وسلطة الحقيقة ومنطقها لا تختلف عن سلطة أي شكلٍ من أشكال الدوغما؛ لأنها ترفض حق الآخر في أن تكون له حقيقة أخرى، فيما وراء الحقيقة. بل حتى الديمقراطية، الديمقراطية القائمة أو الواقعية محكومة بمنطق الحقيقة، منطوق ذاتوي، مكتف بذاته، تبشيري، عنيف تجاه المختلف. وفي الحقيقة تخرس الأخلاق؛ لأن الأخلاق لا تقوم - كما يعلمنا ليقيناس - إلا انطلاقاً من الآخر»<sup>1</sup>.

يقنع ليقيناس أن الإنسان يحمل على عاتقه مسؤوليات كبيرة تجاه الآخر تُلزمه بعدة واجبات، تغلوها المحافظة على حياته وتنتهي عن سفك دمائه. يعني ليقيناس بذلك تصورات الأخلاقية، مؤكداً أن مفهوم «لا تقتل!» له معنى «لا» كتحريم القتل الموصوف، بل تحديداً أو وصفاً أساسياً لنشوء الكيان البشري الذي هو حذر مستمر حيال الفعل العنيف الذي يقتل الآخر<sup>2</sup>. أي أن فعل الأمر الذي ينهى عن القتل ليس بسيطاً يُؤخذ على مستوى خطابي فقط، بل على مستوى الفعل والأداء بل أعلى؛ حيث يتصل بأخلاق إنسانية وأبعاد روحية عميقة جداً.

فمسؤولية الأنا نحو الغير تمتد لتشمل المسؤولية عن موته والخوف من ذلك يتقدم على خوفاً على ذاتي<sup>3</sup>. وعندما يختار الموت في سبيل ألا يقتل، يعطي الإنسان حياته معنى لا يمكن للموت أن يمحوه. وعندما يعبر الإنسان عن مسؤوليته بالطيبة، فإنه يعطي حياته معنى يعطي بدوره معنى للموت نفسه، معنى لا يقاس بأن تكون أو لا تكون؛ لأن الكائن يتحدد «انطلاقاً من المعنى»<sup>4</sup>.

1 - رشيد بوطيب، نقد الحرية أو التاريخ المنسي للنفكيكية، في كتاب «جاك دريدا»، 304.

2 - Emmanuel Lévinas, dans François Poirié, Emmanuel Lévinas, Besançon, Éditions La Manufacture, 1992, Op.Cit., p. 100.

3 - Emmanuel Lévinas, Entre Nous, Op.Cit., p. 228.

4 - Emmanuel Lévinas, Autrement qu'être ou au-delà de l'essence, Op.Cit., p. 205.

عندما أصبح مسؤولاً عن الآخر، أصبح مسؤولاً عن موته «فالخوف من أن يموت الآخر هو بالتأكيد أساس المسؤولية عن الآخر<sup>1</sup>. بالقتل أو بالعنف نفي المواجهة<sup>2</sup>، نلغي الحق في الاعتراف بأحقية الآخر في الحياة. عند ليفيناس لا يقوم السلام من خلال إقامة علاقة شخصية، السلام يجب أن يكون سلامي (أنا)، ينبع مني ليحلّ إلى الآخر. هنا يتأكد التقارب بين الأخلاق والواقع، فيبقى الأنا ومن دون أنانية يحوم حول الرغبة والخير.

#### 4 - المسؤولية الأخلاقية نحو الآخر

يقتنع ليفيناس أن الإنسان يحمل على عاتقه مسؤوليات كبيرة تجاه الآخر تلزمه بعدة واجبات، تعلوها المحافظة على حياته وتنتهي عن سفك دمائه. يغني ليفيناس بذلك تصورات الأخلاقية.

المسؤولية علاقة أخلاقية تقوم بها الذات من أجل الآخر، ولا ينبغي فهم قرب الغير مني بمعنى أنني أعرفه، أو أنه قريب مني مكانياً، أو تصلني به روابط قرابة أو انتماءات مشتركة، «بل يفهم قُرب الغير على أنه قريب مني بالأساس لكوني أشعر - من حيث موجود - بأنني مسؤول عنه. إن بنية هذه العلاقة لا تشبه العلاقة القصدية التي نكوّنها في مجال المعرفة مع موضوع ما، أيا كان هذا الموضوع، حتى وإن كان إنسانياً. فليس مَرَدّ

القرب هو كوني أعرف الغير؛ لأنّ الرّابط الذي يربطني به لا يتحقق إلا كمسؤولية، سواء قبلت أو رفضت، سواء عرفنا كيف نتحمل مسؤوليتها أو لا؛ سواء استطعنا القيام بشيءٍ ملموسٍ تجاه الغير أو لم نستطع ذلك»<sup>3</sup>.

إنّ ما يُضفي السّمة الأخلاقية على الوجود الإنساني هو المسؤولية تجاه الإنسان الآخر، ف«المطلوب هو التعبير عن هوية الأنا انطلاقاً من المسؤولية»<sup>4</sup>، وهذه المسؤولية هي التي تعطي معنى ودلالة وعظمة للوجود

Emmanuel Lévinas, Éthique et Infini, Op.Cit., p. 117-118. - 1

Emmanuel Lévinas - «Totalité et infini (Essai sur l'extériorité)», Op.Cit, p. 216. - 2

Emmanuel Lévinas, Éthique et Infini, Op.Cit., p. 103. - 3

Ibid, p. 97. - 4



البشري. هذه المسؤولية هي وليدة الشّعور بالرعاية والاهتمام بالآخر، هذه الرعاية الأخلاقية سينجم عنها «وسط تتشارك فيه الذات والآخر بالتساوي بالتعبير عن الرغبة في العيش معاً، في حالة المتبادل بهشاشة وضعنا، وأخيراً بأننا ميتون وفانون»<sup>1</sup>. وهكذا لا ينفكُّ ليفيناس يدافع عن الآخر الذي تحدّث عنه في تأسيسه لفلسفة الأخلاق، وقد جاء هذا الاهتمام بالغيرية كبديل للذات والأنا التي غرقت الأنطولوجيا في فحصها ودرسها. في مقابل ذلك، يُعلي ليفيناس من القيمة الأخلاقية للمسؤولية التي تحملها الذات على عاتقها تجاه الغير. والمسؤولية بمثابة اصطفاء، فواجبي في لقائي بالآخر هو عدم التهرب أو التنصل من مسؤوليتي تجاهه، وأصبح بذلك مديناً له<sup>2</sup>.

ليفيناس الذي تأثر تأثراً بالغاً بالأدب الروسي، قد نهل منه كثيراً ومزجه في أساليبه الفلسفية. فغالباً ما نجده يستشهد بما قاله أحد الأشخاص في «الأخوة كارامازوف» لدوستويفسكي: «كل واحد منا هو مذنب أمام الجميع ولأجل الجميع ولأجل كل شيء، وأنا مذنب أكثر من الآخرين»<sup>3</sup>.

في لحظة اللقاء مع الآخر الغريب عني، الذي ليس أنا، في لقائنا وجهاً لوجه، في مناداته لي واقترابه مني، تتجلّى الأخلاق الإنسانية في مراعاة مسؤولية الذات تجاه الغير. عندما نكتشف وجه الآخر لا يمكننا التّغاضي عنه أو تجاهله إنسانياً وأخلاقياً. فعندما يناديني يتوسّل إليّ: ينادي مسؤوليتي؛ فالوجه يفرض ذاته عليّ؛ «فلا أستطيع الامتناع عن تلبية وسماع ندائه، أو أن أنساه [أو أتجاهله]، أو أن أتخلّى عن مسؤوليتي أمام بؤسه»<sup>4</sup>.

إنّ مسؤوليتي تجاه الآخر تفرض ذاتها عليّ مَهْمَا كان موقف الآخر مني،

1 - پول ريكور، «الذات عينها كآخر»، ترجمة وتقديم وتعليق: جورج زيناتى، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، لبنان، ط1، 2005، ص 379.

2 - Emmanuel Lévinas, Humanisme de l'autre homme, Paris, Le Livre de Poche, Biblio-Essais, 1994, p. 53.

3 - Dostoïevski, Les Frères Karamazov, Paris, Gallimard, 1948, p. 264.

4 - Emmanuel Lévinas, Humanisme de l'autre homme, Op.Cit, 1994, p. 52-53.

«أذهب نحو الآخر من دون أي اعتبار لتوجُّهه نحوِي»<sup>1</sup>. إن ذمتي حيال الآخر تبقى غير بريئة حتى لو كلَّفني ذلك حياتي؛ لأنني مسؤول عن الآخر مسؤولية غير مشروطة، دون ردِّ للمقابل أو اعتراف بالجميل، فالمبادلة تخصُّ الآخر وحده<sup>2</sup>.

لقد صاغ ليفيناس ماهية الغير ومواجهته للذات بلغة إيتيقية؛ فعندما يأتيني الغير في زيارة أو يحاورني أو يخاطبني فستتوَلَّد داخلي التزامات أخلاقية تتجلَّى في أن أكون دائماً موجوداً من أجل الآخر حتى في لحظات الاحتضار؛ ف«الاقتراب والتأزر هو إكمال للنقص الذي تعاني منه الذات؛ «عدم التساوي في المقدرَة تُعوِّض عنه مشاركة حقيقية في التبادل، هذه

المشاركة التي تلجأ في ساعة الاحتضار إلى الهمس المتبادل للأصوات، أو إلى التشابك الطويل لليديْن، وشدَّ كلِّ واحدة على الأخرى»<sup>3</sup>.

إنَّ عظمة الغير ومحبتني له تجبراني على أن أكون جاهزا وحاضرا وموجودا من أجله. لذلك فإنني مسؤول تمام المسؤولية عن معنى حياته، و«هذه تعابير من أجل الإفصاح بلغة وصفية عمَّا أدركه عندما ينتصب الغير أمامي. إن الوجه الخلقى لهذا اللقاء يأمرني ويقتضيني»<sup>4</sup>.

**في لحظة اللقاء مع الآخر الغريب عني، الذي ليس أنا، في لقائنا وجهاً لوجه، في مناداته لي واقترابه مني، تتجلَّى الأخلاق الإنسانية في مراعاة مسؤولية الذات تجاه الغير.**

يكمن فعل الكينونة في عدم التهرب أو التبرؤ من مسؤولية الكائن تجاه غيره، إن المسؤولية أخلاقياً تتعدَّى العلاقة المؤسَّسة على التبادل أو الاعتراف؛ أي أن أتجه نحوه بطريقة تجعلني بمعزل عن العلاقات المتبادلة التي سوف تقوم بيني وبين قريبي، أقوم بخطوة إضافية وأخلاقية نحوه<sup>5</sup>. «الغير في الأنا يجعلني مسؤولاً منذ البدء؛ أي منذ الوقت المنسي لماضٍ أكثر

1 - Emmanuel Lévinas, Autrement qu'être ou au-delà de l'essence, Op.Cit., p. 134.  
 2 - Emmanuel Lévinas, Éthique et Infini, Op.Cit., p. 94 - 95.  
 3 - بول ريكور، الذات عينها كآخر، ترجمة وتقديم وتعليق: جورج زيناتي، ص 377.  
 4 - ليفيناس من الموجود إلى الغير، تحت إشراف: جويل هنسل، ص 106 و 107.  
 5 - Voir: Emmanuel Lévinas, Autrement qu'être ou au-delà de l'essence, Op.Cit., p. 134.



ماضوية من كل ماض عالمي أو تاريخي. وأنا أكتب هذه الجملة أتتحقق أنها قيمة من أجل الغير ومن أجلي أنا. كل أنا»<sup>1</sup>.

تحمل مسؤولية الذات أمام الغير دلالات المحبة والسلام، هي مناداة للآ عنف في وجه الحروب التي تفتك وتسفك دماء البشر وتحصد الأرواح وتنشئ المدافن. السلام ليس نهاية للحرب أو ختاماً للاقتتال، أو انصياع الخاسر للمنتصر؛ «على السلام أن يكون سلامي أنا، بعلاقة تنطلق من الذات نحو الآخر، بالرغبة والطيبة حيث الأنا تقوم وتستمر من دون أنانية»<sup>2</sup>.

ومن هنا تتعالى فكرة اللامتاهي فوق كل معرفة، إنها حاجة تتعلّق في علاقتنا بالغير، وفي محبتنا له وخوفنا من موته، وتأثرنا من جراء ذلك، وحزننا على فراقه ليس ضيقاً وغمماً من الموت والفناء الذي ينتظر الذات. نتيجة ذلك التأثير هي الحب الشديد والقوي الذي نحمله في مكنون صدورنا وأفئدتنا للغير، الموت هو الخطر الذي يقترب مني كالسّر. إنّه إقبالي على الآخر ومرجعيتي بالنسبة إلى الموت «أنا نلتقي بالموت في وجه الآخر»<sup>3</sup>.

## 5 - إتيقا اللغة: الغيرية وتجلياتها الخطابية

إن الانخراط في عملية الحوار والمحادثة مع الآخر ستهمل مسألة وجود كل واحد من الطرفين على جهة. ذلك الانخراط هو ارتماء في الكلي ومغامرة لاكتشاف اللانهائي؛ ف«أنّ تتكلم هو - في الوقت ذاته - أن تعرّف على الآخر وأن تعرّفه بذاتك... هذا التعاطي الذي يتطلّب الكلام هو بالتحديد العمل من دون عنف»<sup>4</sup>.

ويقضي الحوار الشفاف والعقلاني بين المتحاورين على كل شكلٍ من أشكال الانغلاق والاكتفاء بمخزوننا ومعتقداتنا الماضوية البالية، أو كما يقول ليفيناس: «اختراق قوقعة العزلة هو وحده الذي يسمح لنا بالانفاذ إلى آخر

1 - ليفيناس من الموجود إلى الغير، ص 113

2 - Emmanuel Lévinas, Totalité et infini, Op.Cit., p. 342.

3 - Emmanuel Lévinas, Dieu, la mort et le temps, Le Livre de Poche, Biblio-essais, 1995, p. 121.

4 - Emmanuel Lévinas, Difficile liberté, Paris, Le Livre de Poche, Biblio-essais, 1990, p. 21.



الوجود بطريقة مغايرة عنه»<sup>1</sup>. وسيشرح أبواب الأنا الموصدة على طريق اللغة والحوارية نحو الوجود مع الآخر ومشاركته همومه وتطلعاته.

ففي دخولنا في محادثة مع الآخر تكون الذات قد تحررت من عقالها وانفتحت على كل غريب ومختلف عنها. إن اللغة من خلال أقوالنا وتداولاتنا مع الآخر تُحدث انقلاباً آخر داخل الذات. عندما يتحدّث موجودان سيبدأ التبادل في لحظة معينة وينطرح بطريقة مستقيمة ثم يتوقف. حيث يتعلّق «زمن التبادل بالحاضر من أجل المستقبل؛ أين ينكشف المعنى تدريجياً، إذ يشهد القول على الزمن بشكلٍ مغاير عندما يمزق الإيقاع الخطي للقائل»<sup>2</sup>.

**تتعالى فكرة اللامتناهي  
فوق كل معرفة، إنها حاجة  
تتعلّق في علاقتنا بالغير،  
وفي محبتنا له وخوفنا من  
موته، وتأثرنا من جراء  
ذلك، وحزننا على فراقه  
ليس ضيقاً وغماً من الموت  
والفناء الذي ينتظر الذات.**

تجعل اللغة (وهي وساطة بين الأنا والآخر) العلاقة بين المتحاورين ممكنة، وتسمح بتبادل المعارف والمعلومات بينهم، وتحقق التواصل بين جميع الفرقاء؛ لأنه حتى في حالة اندلاع النزاع والصراع بين مجموعة من الأطراف فإن اللغة تظل في قلب الأحداث وتبقى الوسيلة الوحيدة لإجراء مفاوضات للخروج بتسويات ظرفية وتوفيقات واتفاقات مرضية لكل الأطراف. «يمكن أن نسمي حواراً هذه المقابلة التي يدخل عبرها

المتحاورون إلى فكر الآخرين حيث يعطون للحوار قيمة، ويمكن أن نسمي اجتماعية وحدة أشكال الوعي المتعددة الداخلة في عين الفكر»<sup>3</sup>.

تتجلى المسؤولية الأخلاقية لسانياً في الخطاب والحوار بين الهويات والغيريات؛ ففي الشُّروع في تخاطب مع الآخر يستلزم ذلك مني الاستجابة لندائه في التواصل معي. «إن الحوار يخرج المرء من وحدته الصمّاء الفارغة؛ أي من أنانيته ويقحمه ضمن الكلية التي هي نتيجة إجماع المتحاورين على

1 - Emmanuel Lévinas, Autrement qu'être ou au-delà de l'essence, Op.Cit, p. 13.

2 - زهير خويلدي، «فيلسوف الغيرية: الأنا والآخر وجهاً لوجه»، ص 11.

3 - Emmanuel Lévinas, De Dieu qui vient à l'idée, Bibliothèque des Textes Philosophiques - Poche, 1998, p. 216-217.



الحقيقة، وهي ليست التطابق بين العقل والواقع، بل رفع المتحاورين للغطاء عن أسرار الواقع لرؤية وجهه الحقيقي طالما أن العلاقة أنا - أنت هي مكان حدوث الإتيقا، وطالما أن الأنا أثناء مقابلتها بالآخر تأخذ بعين الاعتبار الكل، أو تطمح إلى أن تتكلم باسم الكل، ولا تكتفي بالكلام عن الفردي الجزئي<sup>1</sup>. يتعدى تبادل أطراف الحديث تبادل المعارف، ليحقق الغرض التداولي والتفاعلي بغاية إحلال السلام والمحبة والعدالة بين «الأنا والأنت» بتقديم الحجج وإرساء النقاش الهادئ والمثمر الخالي من الجدل والمشادات الكلامية.

إن الحوار والتخاطب لكفيلان بعقلنة البشر والحدّ من نزاعاتهم، وما يحمله الفعل الكلامي من بُعدٍ إتيقي سيكون كفيلاً لا محالة بكبح الأهواء السلطوية والعدوانية للذات تجاه الآخر. ففي الحوار يتحقق انجذاب نحو الآخر «لأن هذا الشخص الذي يكلمني لا أفكر فيه كما هو بل أتحدث إليه فهو مشارك لي في علاقة تجعلني حاضراً دائماً وأبداً بالنسبة إليه، وتجعله حاضراً دائماً بالنسبة إليّ، ومن هنا ينشأ الاحترام والاعتراف المتبادل»<sup>2</sup>.

يتحمّل الإنسان مسؤولية خطابه وكلامه، ويعني الكلام في اللغة الجروح التي تحدث من أثر الأقوال مثل تلك التي تحدث من جرّاء الأفعال. فللكلمات والخطاب أثر على الآخر الذي سندخل في تواصل معه، لذا علينا تحمّل المسؤولية كاملة والالتزام في أقوالنا ومراعاة الآخر وحمانيته؛ وعليه فقد شدّد ليشيناس على الأهمية الأخلاقية للكلام وتوظيفها لصالح الخير والطيبة واللاعنف، يقول في هذا الشأن: «العقل والكلام هما خارج العنف. إنهما النظام الروحي. وإذا كان على الأخلاقية أن تنبذ العنف، فيجب أن يكون هناك رابط عميق ما بين العقل والكلام والأخلاق»<sup>3</sup>. إذن، وفي إطار حديثه عن العلاقة الأخلاقية التي تربطنا بالآخر، وجب الالتزام بإعطاء أهمية للغير

1 - زهير خويلدي، المرجع السابق، ص 11.

2 - المرجع السابق نفسه.

3 - Emmanuel Lévinas, Difficile liberté, Paris, Le Livre de Poche, Biblio-essais, 1990, p. 19.

وعدم قهره أو نهره ومحاولة الهيمنة أو التّعدي عليه، فوجب إخلاء العلاقة مع الآخر من كل إزاحة أو غطرسة قد تشوبها.

بعبارةٍ أخرى، على العلاقة أن تأخذ شكل «أنا - أنت» بدل «أنا - هو». أي اعتراف بدل تهميش الغيرية وتغييبها ونبذها. عملية الاعتراف هذه ستكون حبلية بمعاني الخروج من النرجسية والأنانية التي لا طائل من ورائها دون الآخر، ففي الكلام سيُقبلُ الأنا نحو الآخر ويشرع في خطابه قائلاً له: «أنت» بدل البداية في الحديث عن الأنا. ف«أن تتحدّث مع الآخر - هو في الوقت ذاته - أن نعرف الآخر ونجعله يعرفنا، فالآخر هنا ليس فقط معروفاً بل وأيضاً مُرحّباً به، ليس فقط مسمى بل وأيضاً مدعو من طرفنا. أنا لا أفكر في كل ما هو بالنسبة إليّ فقط بل وأيضاً وفي الآن نفسه أفكر في كل ما هو بالنسبة إليه»<sup>1</sup>.

**إن الحوار والتخاطب  
لكفيلان بعقلنة البشر  
والحدّ من نزاعاتهم، وما  
يحمّله الفعل الكلامي من  
بُعْدٍ إتيقي سيكون كفيلاً  
لا محالة بكبح الأهواء  
التسلطية والعدوانية  
للذات تجاه الآخر.**

إن نبذ كلام الآخر أو التقليل من شأنه هو انتفاء للأخلاق، وهذا الانتفاء شبيه بتحطيم وجه الإنسان أو حتى قتله، ففي القتل ستكون هناك مشاعر ضارية تريد إسكات الآخر بشتى السبل ودحره بمختلف الطرائق. لذلك نجد ليفيناس داعياً للحوار ولخطاب السلم، مهما حدث الخلاف

ومهما كانت درجات الاختلاف. رفض القتل والتصديّ للتعصب يكون بالولوج في دوائر الحوار واحتضان الآخر والدخول معه في علاقة اعتراف وائتلاف. على أن تأخذ تلك العلاقة موضوع المسؤولية على محمل الجدّ.

## خاتمة:

يُعدّ ميل إيمانويل ليفيناس للإتيقا تغييراً للسائد في عصره من تيارات فلسفية كالبنوية والفينومينولوجيا والماركسية وغيرها، ونقداً منه للمركزيات العقلية المبجّلة للوعي والذات، التي ما فتئت تعمل على إقصاء الآخر واستبعاده.



بعبارة أخرى إن الإتيقا هي سبيل ونهج ليفيناس المُغاير الذي تحدى من خلاله الفلسفات المتمركزة على الذات من دون غيرها.

وقد قدّم ليفيناس للدّرس الفلسفي المعاصر أعمالاً جليّة وتحاليل رائعة فيما يخصّ مبحث الأخلاق، بانكبابه على العلاقة البينذاتية والإتيقية التي تربط الذات بنظيرها، وصوغه لمقولات الوجه والمسؤولية والمساواة والعدالة والعلاقات البشرية غير المشروطة مثل الصداقة والضيافة والغفران والتكفير عن الآثام. لقد أسّس ليفيناس فلسفته الأخلاقية على مبادرة الآخر. وهذا الأخير قد أعاد له فيلسوفنا الاعتبار بعد أن غيّبته التقاليد الفلسفية، وعمدت إلى تهميشه وإقصائه بقصد أو غير قصد. وسلك ليفيناس بذلك مسلك الموجود بدل الوجود، مبرزاً تجليات العلاقة بين الأنا والهو ممثلة في الصداقة والمحبة وعطاء إنساني ملؤه الخير والطيبة والسّلام.